الموحّدون: صعود الإمبراطورية الإسلامية

ألن فرومهرز

مراجعة: أميرة ك. بنيسون

لم يحظ الموحدون، وهم سلالة من شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا في القرون الوسطى، باهتمام الكثير من العلماء الناطقين باللغة الإنكليزية في الدراسات الإسلامية، حيث عمل الكثير منهم من منظور شرق أوسطي. لذا يعد كتاب ألن فرومهرز إسهامًا مهمًّا جدًّا في هذا المجال. يهدف الكتاب إلى بحث صعود الموحدين من خلال دراسة زعيم الحركة الموحدية، محمد بن تومرت؛ والبيئة البربرية القبلية التي نشأت فيها الإمبراطورية؛ والمذاهب التي من خلالها جمع بن تومرت هذه القبائل من جبال المغرب الأطلسية الكبيرة. يقدم الكاتب الموحدين بطريقة جذابة، وذلك باستخدام المصادر الأولية كأساس للحجج المقدمة في كل فصل. ويبدأ بملخص موجز عن تاريخ الإمبراطورية الموحدية، ثم يناقش بحنكة المصادر وأوجه قصورها، ولاسيما جوانبها الأسطورية (على الرغم من أن عليه حتمًا الاعتماد عليها). كما أنه يتحدث عما يعده البعد 'البربري' المهمل في الأعمال التي صيغت حول صعود هذه الإمبراطورية.

الفصل الأول يستكشف حياة ابن تومرت والسنوات الأولى للحركة الموحدية بإلقاء نظرة ثاقبة على المجتمع القبلي في جبال الأطلس الكبير، وتداعيات نسب ابن تومرت. باستخدام السير التي كتبها تابعه، البيدحق Baydhaq، بجانب مصادر أخرى، يتتبع هذا الفصل تشكل ابن تومرت الفكري في الشرق الإسلامي، وأهم الأحداث التي وقعت في رحلته الطويلة إلى مراكش. ويحلل فرومهرز بمهارة اجتماعات ابن تومرت مع عبد المومن، خليفة الإمبراطورية الموحدية اللاحق، ولقائه مع علي بن يوسف، الحاكم الذي سعى للإطاحة بإمبراطوريته.

ويركز الفصل الثاني على إسهام القبلية البربرية للحركة الموحدية، ويشير إلى أنه في حين رفضت رسالة ابن تومرت للإصلاح الإسلامي جوانب من الماضي القبلي، إلا أنها عملت على استيعاب واستخدام وتعديل الكثير منها. يحلل فرومهرز بشكل خاص أدوار الأسماس āsmās، وجبة مجتمعية لتأكيد التحالفات، والتمييز tamyīz، ويتم استعراض القبائل التي استخدمها الموحدون كأداة لتطهير وقتل العناصر الخائنة وكذلك للاعتراف بالتفاني من أجل القضية. تم وصف القبائل المشاركة في الحركة في مقابل إعطاء نظرة عامة شاملة عمن شاركوا فعليًّا في الحركة. ينتهي الفصل بملخص عن التسلسل الهرمي للسلطة الموحدية التي انبثقت من هذه البيئة.

في الفصل الثالث، يتمعن فرومهرز في المذاهب التي طرحها ابن تومرت وادعائه بأنه المهدي. وتمشيًّا مع غيره من العلماء، ولاسيما ماريبل فيرو، يظهر كيف تصف المصادر الموحدية حياة ابن تومرت على أنها تقليد لحياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وتولي أهمية كبرى لادعائه بأنه المهدي. هذا الادعاء مكنه من المطالبة بالطاعة الكاملة لرسالته بحكم منزلته. ثم تم وصف الإسلام الذي أصلحه كما يدعي في كتابه (أعظم ما يُطلب)Aʿazz mā Yuṭlab. هو موضوع بقية الفصل. على الرغم من خلاف العلماء حول ما إذا كانت جميع محتويات الكتاب قد ألفها فعلًا ابن تومرت، يعتقد فرومهرز أنها من إنتاجه ويعطي تفسيرًا جيدًا لشكلها ووظيفتها في الحركة الموحدية.

الفصل الرابع الذي يبحث صعود الموحدين في سياق أوسع وجيز. أيضًا كان من الممكن حذف تحليل تشكيل القبيلة أو دمجه في الفصل الثاني. في الواقع، من أبرز نقاط ضعف هذا الكتاب هو ترتيب المواد وتكرار بعض النقاط المتشابهة. ينتهي الفصل الأول بأقسام على أساس الجنس والتسميات العرقية التي تعرقل تدفق السرد. كما أن وصف الاقتصاد القبلي أيضًا يقف عقبة في طريق السرد في نهاية الفصل الثاني. المسألة ليست أن هذه التعليقات الجانبية غريبة عن الموضوع ولكنها لا تبدو متكاملة بما فيه الكفاية في كل الكتاب. وهذا في بعض الأحيان يعطي الشعور بأن العمل غير مترابط. ومن ناحية أخرى، فإن عددًا كبيرًا من الأقسام والعناوين الفرعية لا تجعل من السهل التصفح، لكن ربما قد تكون مفيدة كمرجع.

والسؤال الأساسي الذي يطرحه الكتاب، هو خصوصية قبيلة بني مصمودة Maṣmūda البربرية، على نقيض المكون القبلي لصعود الموحدين. ابن خلدون، الذي يستشهد فرومهرز بدوره في خلق أسطورة البربر لأصل الإمبراطورية، لا يعد البربر فريدون من نوعهم ولكن يرى أن مزيج العصبية والإلهام الديني الذي ظهر عليهم، كان واضحًا على قدم المساواة في العرب والشعوب القبلية الأخرى. وبينما هذا صحيح فقد دعم بنو مصمودة Maṣmūda ابن تومرت لأنه كان واحدًا منهم، لذا لابد من إجراء المزيد من الأبحاث على الحركة.

على الرغم من المزايا العديدة، إلا أن هناك أوجه قصور في هذا الكتاب. فالحروف العربية غير صحيحة في كثير من الأحيان. على سبيل المثال،furū ؛ وكذلك تم استخدام "بو يعقوب يوسف" بدلًا من "أبو يعقوب يوسف" (ص164) و"أبو Shiyyba" بدلًا من "أبي شيبة". كما ترجم فرومهرز "kafīr and jāhiliyya (sic)" هكذا: "كافر وجاهل". (ص162) وهذا يبدو غريبًا عند التحليل الدقيق للمصادر الأولية بما في ذلك أعز ما يطلب Aʿazz mā Yuṭlab.

بالإضافة إلى ذلك، هناك ملاحظات وفيرة، تعد تعليقات أكاديمية على النص الرئيس، ولكنها موضوعة في نهاية العمل بدلًا من وضعها في نهاية كل صفحة. ويبدو أن هذا يعكس بعض التوتر في الكتاب، كفاح من أجل البساطة وجذب الجمهور والاعتراف بأنه دراسة أكاديمية. في نهاية المطاف، فإنه من الصعب جدًّا على أي كتاب أن يجمع بين الاثنين، لكن عمل فرومهرز يتأرجح بين الاثنين. وبالرغم من ذلك، يعد الكتاب مقدمة جيدة للوصول إلى تاريخ الموحدين، كما تعد قراءته ممتعة، وتلقي الضوء على قضايا رئيسة، وعقَدية وسياسية واجتماعية، متعلقة بصعود هذه الإمبراطورية الرائعة.